088

مقدمة
في تاريخ الممالك الإسلامية
في السودان الشرقي

١٤٥٠ - ١٨٢١

يوسف فضل حسن
جامعة الخرطوم

SUADTek Limited
Khartoum
٢٠٠٣

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الحمدُ لله فَاتِحَةُ كُلِ خَيْرٍ﴾

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

معهد البحوث والدراسات العربية

الجامعة العربية - القاهرة ١٩٧١م

الطبعة الثانية

الدار السودانية للكتب- الخرطوم

١٣٩٢ - ١٩٧٢م

الطبعة الثالثة

مطبعة جامعة الخرطوم

دار جامعة الخرطوم للنشر

الخرطوم ١٤١٠ هـ / ١٩٨٩م

الطبعة الرابعة

١٤٢٢ هـ / ٢٠٠٢م

سوداتك المحدودة

٢٠٠٣

انتشار الإسلام في السودان الشرقي

تعرضت في أثناء حديثي عن قيام الممالك الإسلامية في السودان الشرقي في اقتضاب شديد لبعض مظاهر انتشار الإسلام. ولما كان هذا الحدث مثل دخول العرب الى السودان، واحداً من العناصر المهمة التي أسهمت في قيام تلك الممالك، بل ظل الإسلام يمثل واحداً من الروافد الثقافية التي أثرت في معتقدات شعوب السودان الشرقي ووجدانهم، رأيت أن اذكر في شيء من التفصيل الطريقة التي انتشر بها الإسلام وأتعرض لبعض سماته في بيئته الجديدة.

ونسبة لشح المؤلفات التي تؤرخ لإنتشار الثقافة الإسلامية في سائر أنحاء السودان الشرقي فستتركز معظم ملاحظاتي على المنطقة الواقعة تحت نفوذ العبداللاّب السياسي. ففي تلك المنطقة عاش الفقيه محمد النور بن ضيف اللّه (ت ١٨١٠م) مؤلف كتاب **الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان**، وهو سفر قيم يعكس أبعاد انتشار الإسلام وطبيعته. وقد ركزالمؤلف جهده على تراجم الأولياء والفقهاء والقراء وقلة من الخطباء والقضاة، وكان جملة من ترجم لهم نحو المئتين والسبعين شخصاً. وتوضح هذه التراجم أن المؤلف ركز جهده على الجزء الشمالي من الجزيرة، خاصة شواطيء النيل الأزرق، والمنطقة الواقعة بين دنقلا وملتقى النيلين.وتعكس كثرة أسماء من ترجم لهم من هذه المنطقة غلبة الثقافة العربية والإسلامية إذا ما قورنت بباقي اجزاء السودان الشرقي. وإذا ما استثنينا سنّار. نجد أن المؤلف نادراً ما يشير الى علماء من بلاد البجة، والتاكا وكردفان ودارفور. ويرجع صمته هذا لقلة ما يعرفه عن تلك البلاد، ولبعدها عن موطنه، حلفاية الملوك، وربما لعدم إنتشار الثقافة الإسلامية وتعمقها فيها بعد. وتحتويكل ترجمة على نبذة من حياة المترجم له، ونسبه لأبيه، وأمه، وأسماء معلميه، وشيوخه الذين سلك عليهم المذهب الصوفي ثم اسماء التلاميذ والمريدين الذين أخذوا عنه، وأسماء الكتب التي إطّلع عليها أو دبجها؛

ويختم ذلك بما ينسب للمترجم له من كرامات(١).

تسربت بواكير العقيدة الإسلامية إلى الجزء الشمالي من السودان الشرقي منذ أواسط القرن السابع الميلادي على ايدي التجار المسلمين والمهاجرين العرب. وقد تسربت هذه المجموعات كالهجرات العربية الكبرى من ثلاثة طرق: **أولها**: من مصر **وثانيها**: من الحجاز عن طريق موانئ باضع، وعيذاب، وسواكن، **وثالثها**: من المغرب وشمال أفريقيا عبر أواسط بلاد السودان. وقد أسهم التجار المسلمون في نشر الدين الإسلامي اثناء رحلاتهم في مملكتي النوبة وعلوة وبلاد البجة، وساعدهم في ذلك المغامرون الذين اشتغلوا بالتعدين في الصحراء الشرقية. إلاّ أن صغر حجم هذه الفئة قلل من فعالية أثرها، إذا ما قورن بدور المجموعات العربية التي أخذت تتوغل في السودان في أعداد كبيرة منذ القرن التاسع الميلادي. ونتيجة لتزايد النفوذ العربي الإسلامي صارت الأسر المالكة في بلاد النوبة وعلوة وسنار وتقلي ودارفور مسلمة مستعربة بعد أن كانت مسيحية أو وثنية. وبنهاية القرن السابع عشر بلغ النفوذ الإسلامي نحو خط عرض ١٠° شمالاً، والذي ظل يمثل الحدود الجنوبية لإنتشار الثقافة الإسلامية في معظم تلك الممالك عدا منطقة البقارة التي أمتدت حتى شواطئ بحر العرب الشمالية .

غير أن إنتشار الدعوة الإسلامية قبل قيام مملكة الفونج كان صورياً، فقد إهتم الرواد الأوائل من المسلمين، وجلهم من التجار والبدو وهم ممن تنقصهم المعرفة الدقيقة بالفقه الإسلامي، في إستمالة المسيحيين والوثنيين إلي الإسلام فركزوا على المبادئ العامة دون التفاصيل، وقد شارك هاتين الفئتين بعض العلماء ولكن جهودهم ظلت محدودة. وقد روى عن أول من أشتهر منهم واسمه غلام اللّه بن عائد اليمني، والذي قدم من الحليلة باليمن في أواسط القرن الرابع عشر، أنه قرر البقاء في دنقلا مساهمة منه في نشر تعاليم الإسلام الحقة، إذ هاله ما رأى بأهلها من جهل وحيرة لإنعدام العلماء والقراء. فلما حل

بها عمر المساجد وأنشأ المدارس وأخذ يعلم القرآن لأولاده ولأبناء المسلمين. وشهد القرن الخامس عشر مجئ الشيخ حمد أبو دنانة صهر الشيخ عبد اللّه بن محمد الجزولي الشاذلي، وكان استقراره بالمحمية ولعله أول من نشر الطريقة الشاذلية في السودان(٢).

وبالرغم من مجهودات غلام اللّه بن عائد وحمد أبي دنانة فإن حالة التيه والجهل التي اشرنا إليها أولاً ظلت موجودة حتى نهاية مملكة علوة المسيحية. وجاء في وصف ليوحنا السورى الذي زار تلك البلاد أن سكانها: "ليسوا بمسيحيين ولا يهود ولا مسلمين ولكنهم يؤملون أن يظلوا مسيحيين".(٣) وحقيقة الأمر أن الديانة المسيحية لم تندثر بإنتهاء نفوذ مملكتي النوبة وعلوة المسيحيتين، بل استمرت المسيحية في بعض مظاهرها حتى عهد متأخر. وقد أثبتت الحفريات الحديثة أن الديانة المسيحية ظلت موجودة في بعض المناطق في أقصى شمال السودان الشرقي حتى أواخر القرن الخامس عشر (أو ١٤٨٥م).(٤) ولعل ما جاء على لسان الراهب الحبشي تكلا ألفا الذي زار دنقلا في سنة ١٥٩٦م ما يوحي بوجود فرق عقائدي بين من يسميهم بالنوبة وبين سائر المسلمين(٥).

ولما استولى الفونج على زمام الأمر في أول القرن السادس عشر وصف ابن ضيف اللّه الحال بأنه: "لم يشتهر في تلك البلاد علم ولا قرآن. ويقال إن الرجل كان يطلق المرأة ويتزوجها غيره في نهارها من غير عدة حتى قدم الشيخ محمود العركي من مصر، وعلم الناس العدة، وسكن البحر الأبيض".(٦)

ومحمود العركي عربي من بني عرك فرع من جهينة، وقد نشأ بالنيل الأبيض، ثم هاجر لمصر حيث درس الفقه المالكي على إثنين من أئمة ذلك المذهب هما ناصر الدين اللقاني (١٤٥٣ - ١٥٢٨ - ١٥٢٩م) وأخيه شمس الدين (١٤٦٨ - ١٥٥١م)، ثم عاد لبلاده حيث أنشأ سبع عشرة مدرسة بين الخرطوم وإليس لتدريس الفقه.(٧) فلما وطّد الفونج أركان ملكهم بمشاركة العبدالّلاب، خلق ذلك نوعاً من الإستقرار والوحدة السياسية الأمر الذي ساعد على بث الثقافة الإسلامية

بطريق أعمق وأشمل مما ألفته البلاد من قبل. فهاجر بعض السودانيين يطلبون العلم في مصر والحجاز والمغرب بينما تقاطر بعض الفقهاء صوب السودان الشرقي من مصر والحجاز، على أثر تشجيع ملوكه لهم بالهدايا والهبات. وكان جل من وفد من مصر من الفقهاء، بينما تميز الأثر الحجازي بغلبة رجال الطرق الصوفية عليه، ويساعد التيار المغربي في إثراء كل من الطابع العلمي والصوفي.(٨)

ومن أول العلماء الذين أسهموا في بث تعاليم الدين الإسلامي الشيخ إبراهيم البولاد بن جابر بن غلام الله بن عائد، الذي جاء ذكره من قبل. ولد إبراهيم بجزيرة ترنج ببلاد الشايقية، ثم رحل إلى مصر حيث تفقه على الشيخ محمد البنوفري (ت ١٥٩٠م) إمام المذهب المالكي في القاهرة. فلما فرغ من دراسته عاد لوطنه وأدخل تدريس كتابي رسالة ابي زيد القيرواني ومختصر خليل بن إسحاق في مملكة الفونج، وتدفق الطلبة عليه وعلى إخوته إسماعيل وعبدالرحمن وعبد الرحيم من بعده.

قام أولاد جابر الأربعة وأحفادهم بدور كبير في إرساء قواعد التعليم الديني والفقه في أجزاء متفرقة من السودان الشرقي،(٩) كما بلغت أختهم فاطمة درجة رفيعة في العلم والصلاح، ومنها إنبثقت اسرة دينية أخرى لا تقل عن أولاد جابر شهرة، وهم الصغيروناب أحفاد إبنها محمد صغيرون بن سرحان الذي تفقه على أخواله ثم درس علي البنوفري. وبسبب بعض الخلاف بينه وبين أبناء أخواله وعلى أثر دعوة من السلطان بادي سيد القوم، وكان من مريديه ويؤمن بصلاحه نزح حوالي عام ١٦١٢م إلي ديار الجعليين حيث أسس في الفجيجة، الواقعة جنوب شندي، مركزاً دينياً شبيهاً بمركز أخواله.(١٠) وتحت قيادة ابنه وخليفته الشيخ الزين إزدهرت تلك المدرسة حتى طبقت شهرتها الآفاق. ويقول عنه ود ضيف الله : "وجلس في حلقة أبيه من بعده، وشدت إليه الرحال، وضربت إليه أباط الإبل، وطال عمره، واشتهر ذكره. وأخذت عليه الأبناء والآباء والأحفاد

والأجداد وبلغ تدريسه لمختصر خليل خمسين ختمة، وبلغت حلقته ألف طالب وتلامذته صاروا شيوخ الإسلام. وبالجملة فالبلاد كلها إلى دار صليح تجد فقهاها وقضاتها تلامذته وتلامذة تلامذته".(١١)

نشأ آخرون من حفدة أولاد جابر مدارس في أبي حراز والهلالية وقام أبناء عمومتهم، الركابية أبناء ركاب بن غلام اللّه بن عائد، بدور مماثل في نشر العقيدة الإسلامية فاشتهروا بمدارسهم في خورسي بكردفان وجبل الحرازة، وفي الصبابي الواقعة شمال الخرطوم، والتي ربما هاجروا إليها قبل قيام مملكة الفونج.

شهدت نفس الفترة هجرة المحس، وهم قبيلة من النوبة الذين يسكنون بين الشلال الثاني والثالث إلى شواطئ النيل الأزرق بالقرب من ملتقى النيلين. وقد أدى ذلك لنشأة بعض المراكز الدينية التي حظيت بشهرة واسعة خاصة مدرسة الشيخ إدريس ود الأرباب (١٥٠٧-١٦٥١م) في العيلفون ومدرسة الشيخ أرباب الخشن أو أرباب العقائد (سنة ١٦٩١م) في الخرطوم وممن تتلمذوا عليه الشيخ خوجلي، وفرح ود تكتوك، وحمد ود أم مريوم، ومحمد ود ضيف اللّه جد مؤلف الطبقات. ومدرسة الشيخ خوجلي بن عبدالرحمن (ت ١٦٤٣م) الذي استقر شرق جزيرة توتي.(١٢)

أدى تقاطر الطلبة السودانيين علي مصر إلي تشجيع العلماء المصريين على الهجرة إلى السودان رغبة في ثواب الآخرة وطمعاً في جاه الدنيا. ومن أشهر هؤلاء الشيخ المصري محمد القناوي الذي درس الفقه المالكي على الشيخ سالم السنهوري (ت ١٦٠٦م) والشيخ يوسف بن عبدالباقي الزرقاني. وكان مجيئه إلى مملكة الفونج في أواسط القرن السادس عشر حيث زار سنّار وأربجي واستقر أخيراً في بربر عاصمة مشيخة الميرفاب. وتخرج عليه عدد من أجلة العلماء أمثال الشيخ عيسى بن صالح سوار الدهب وعبداللّه الأغبش وعيسى بن كنو ، ومنهم حفيده المضوي محمد بن محمد بن الشيخ المصري ، العالم الجليل الذي

صنف عدداً من الكتب والحواشي في الفقه والتوحيد.(١٣)

وقد اهتم أولئك الفقهاء بالتركيز على تعليم القرآن الكريم وتدريس مبادئ التوحيد والفقه في إطار المذهب المالكي، وإن كانت قلة من السودانيين قد تبعت المذهب الشافعي. وترجع غلبة المذهب المالكي إلى أن جمهرة من هاجر من العرب إلى السودان وفدوا من صعيد مصر الذي عرف بشيوع المذهب المالكي بين سكانه. وكان الرواد الأوائل من الفقهاء سواء من درسوا في مصر كمحمود العركي وإبراهيم البولاد ومحمد صغيرون سرحان أو من وفدوا منها مثل محمد القناوي المصري، كانوا ممن تفقهوا في المذهب المالكي ونشروا كتبه الرسالة **ومختصر خليل**.(١٤) وكان معظم علماء المغرب الذين تقاطروا على السودان الشرقي يدينون بالمذهب المالكي. وربما كان تفضيل السودانيين للمذهب المالكي يعزى إلى أن طبيعة ذلك المذهب تناسب حياة البداوة الغالبة على السودان الشرقي.(١٥)

دخل المذهب الشافعي مملكة الفونج على يد الشيخ محمد بن علي قرم الذي درس على الفقيه المشهور الخطيب الشربيني (ت ١٥٦٩ - ١٥٧٠م) وجاء إلى السودان في نحو عام ١٥٦٣م، وبعد طواف استقر به المقام في بربر حيث نشر تعاليم الإمام الشافعي. وكان من تلاميذه عبدالله العركي، وإبراهيم الفرضي، والقاضي دشين المشهور "بقاضي العدالة". ولم يكتب للمذهب الشافعي الإزدهار نتيجة تكاثر أتباع المذهب المالكي ، غير أن منطقتي سواكن وطوكر ظلتا تدينان بتعاليم الشافعي نتيجة صلاتهما التجارية بالحجاز واليمن ومصوع وشرق أفريقيا حيث تغلب تعاليم ذلك المذهب.(١٦)

كانت أكثر كتب الفقه المالكي شيوعاً في مملكة الفونج الرسالة و **مختصر خليل**، وشروحه المتعددة مثل **شرح عبدالباقي الزرقاني على مختصر خليل وفتح الجليل على مختصر خليل** لمحمد بن إبراهيم التتائي، و **حاشية علي مختصر خليل** لأبي عبدالله الخراشي، وكذلك **المدونة** لأسد بن الفرات ومن كتب الشافعية **منهج**

الطالبين لمحي الدين النووي، و **منهج الطلاب** لزكريا بن محمد الأنصاري. ومن كتب التوحيد التي وجدت رواجاً **متن السنوسية** وهي مقدمة في التوحيد لأبي عبدالله السنوسي التلمساني (ت١٤٨٠م) ولها شروح مختلفة بعضها بأقلام سودانيين.(١٧)

واهتمت قلة من العلماء السودانيين بدراسة علوم القرآن والفرائض، ومبادئ النحو والصرف وعلوم اللغة والمنطق والحديث والأصول والأخبار والسير. ولما ازدادت معرفة العلماء السودانيين بالعلوم التقليدية أخذوا يحذون حذو رصفائهم في العالم الإسلامي في كتابة الشروح والحواشي، واهتم هؤلاء العلماء بجمع الكتب. ويروى عن الشيخ حامد اللين أنه باع عبداً له ليشترى بثمنه كتاب **الشبراخيتي على خليل** واستأجر الشيخ عبدالرحمن بن صالح ابن بان النقا النساخ لينسخوا له كل ما تقع ايديهم عليه في داخل البلاد، فلما أنجزوا ذلك بعث إلى مصر والحجاز يطلب غيرها، فملأ من ذلك ست خزانات. وقد ساعدت هذه المكتبة وغيرها في تبديد شيء من العزلة الفكرية التي كانت تهيمن على البلاد من جراء صعوبة المواصلات في الداخل وقلة الإتصال بالخارج .(١٨)

استهوت الثقافة الفقهية البحتة التي قد أوضحنا بعض سماتها قلة من السودانيين وانخرط عامة الناس في سلك المريدين من أتباع الطرق الصوفية، بل فضلوه على الطابع الفقهي. وقد تأثر الإسلام في السودان بالجو الصوفي المتفشي في العالم الإسلامي، بعد أن كتب للصوفية النصر في صراعها الطويل مع أهل السنة في القرن الثاني عشر الميلادي، على أثر تجربة الإمام أبي حامد الغزالي (ت ١١١١م) الذي وفق بين الشريعة والحقيقة عندما مزج بين تعاليم الشريعة والتصوف جاعلاً من الفقه أساساً لتعاليمه .

وبعد أن كان التصوف مطلب الصفوة من المسلمين صار مقصداً للجميع، فانتشرت الطرق الصوفية في سائر أنحاء العالم الإسلامي، وازدادت هيمنتها الروحية على الخاصة والعامة، إلاّ أن إنتشارها جعلها نهباً مشاعاً لكثير من

الجهلة والأدعياء فأخذوا يسبغون الكرامات وخوارق العادات على مشايخ الطرق ويتخذونهم عوناً لهم ضد قسوة الحياة وظلم الولاة .

فلما بدأ رواد المتصوفة نشاطهم في مملكة الفونج وجدوا التربة صالحة. والحق أنه قبل أن تتم عملية نشر التعاليم الإسلامية الصحيحة وقبل أن تستأصل العادات والمعتقدات القديمة بدأ الزحف الصوفي، ووصل مداه إلى السودان مشوباً ببعض العبادات غير الصحيحة. ولإنعدام المرتكز الفكري والثقافي ولقلة طبقة الفقهاء والمقتدرين والعاملين لنشر العقيدة الإسلامية على اساس سليم إنتقلت التعاليم الصوفية بكل ما فيها من شعوذة وعادات وثنية فامتصتها الطرق الصوفية المحلية دون تمحيص.(١٩)

كان أول الوافدين من رجال الطرق الصوفية الشيخ تاج الدين البهاري البغدادي القادري الذي قدم في نحو عام ١٥٧٧م من بغداد عن طريق الحجاز حيث قابله داؤد بن عبد الجليل التاجر السوداني ودعاه لزيارة السودان. وفي أثناء إقامته التي بلغت سبعة أعوام سَلَّك تاج الدين عدداً من المريدين في طريقة القادرية التي أنشأها الشيخ عبد القادر الجيلاني (١٠٧٧ - ١١٦٦م) منهم الشيخ عجيب الكبير، ملك العبداللاَّب وشاع الدين ولد التويم جد قبيلة الشكرية، وحجازي بن معين، و الشيخ بان النقا الضرير، ورحمة جد الحلاوين، و الشيخ حمد النجيض صاحب مسجد إسلانج، والعمدة ولد عبدالصادق والشيخ محمَّد الهميم بن عبد الصادق الركابي.(٢٠) ولما أراد العودة إلى الحجاز يروى أنه قال لمريديه: "أنا جيت من بغداد لأجل هذا الولد }يعني الشيخ محمَّد الهميم {خلفته في مكاني، مثل ما بتعاينوا لي عاينوا له وأداه الأسماء والصفات ومعرفة دخول الخلوات".(٢١)

وطلب الشيخ تاج الدين من الشيخ عبداللَّه بن دفع اللَّه العركي، الفقيه الجليل، وأحد قضاة الشيخ عجيب، أن ينخرط في سلك القادرية فرفض الشيخ عبداللَّه متعللاً بأنه قد تفقه في الدين ولا يريد أن يشتغل بغير الفقه. ولكنه لما رأى ما حققه تلاميذ تاج الدين البهاري من مكاسب دنيوية حتى صارت كلمتهم مسموعة

عند ملوك الفونج والعرب، واشتهروا بالكرامات، قرر أن يلحق بتاج الدين في مكة فوجده قد مات وسلك الطريق على أحد مريديه،[٢٢] وعاد إلى بلاده مرشداً للناس في علمي الظاهر والباطن .

وقيل إن أول من "أوقد نار" الشيخ عبدالقادر الجيلاني (أي أحيا القادرية ونشرها) هو الشيخ ادريس ود الأرباب (١٥٠٧ - ١٦٥١م) الذي يروى أنه أخذها بمدد من رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، أو من شيخ يدعى عبدالكافي قدم عليه "بالخطوة " من المغرب، وربما كانت الرواية الأخيرة صدى لصلة صوفية بالمغرب. وحول محمَّد الهميم، وبان النقا الضرير وعبداللّه العركي وأحفادهم الصادقاب واليعقوباب والعركيين وغيرهم من المشايخ كالشيخ إدريس ود الأرباب وحسن ود حسونة ازدهرت الطريقة القادرية حتى صارت مقصد غالبية السكان.[٢٣]

وشهدت سلطنة الفونج انتشار طرق صوفية أخرى مثل الشاذلية والسمانية والختمية:

دخلت الشاذلية في موجتين إحداهما قبل قيام سلطنة الفونج علي يد الشيخ حمد أبو دُنَّانه. وربما ضاع أثرها قبل بدء الموجة الثانية التي اشتهر من أتباعها الشيخ خوجلي بن عبدالرحمن الذي جمع بين تعاليمها وبين القادرية. والشيخ حمد بن المجذوب (١٦٩٣- ١٧٧٦م) والذي صار من مريديها في الحجاز ثم نشرها بين مريديه من الجعليين و البجة. وازدهرت الشاذلية على أيدي حفدته المجاذيب وعرفت باسم المجذوبية[٢٤].

أما السمانية والختمية فقد كانتا نتاجاً لبعث صوفي شمل كل المقاطعات الجنوبية من الإمبراطورية العثمانية، وقد أنشأ الطريقة السمانية، وهي ذات صلة بعيدة بالخلوتية، الشيخ محمد عبدالكريم السمان في المدينة المنورة. وكان من تلاميذه الشيخ أحمد الطيب البشير الجموعي (١٧٤٢ - ١٨٢٣م) الذي هاجر طلباً للعلم. وعند عودته نشر الطريقة السمانية بين مريديه من الكواهلة

والحلاوين وبعض اليعقوباب بعد أن تخلوا عن الطريقة القادرية أو جمعوا بين تعاليمهما علي الأرجح.

وقد دخلت الختمية من الحجاز ايضاً على يد منشئها السيد محمد عثمان الميرغني(١٧٨٣- ١٨٥٣م) الذي إنحدر أسلافه من بخارى. وجاء السيد محمد عثمان للسودان بتوجيه من أستاذه الزعيم الصوفي والمصلح الديني أحمد ابن إدريس بقصد نشر الطريقة الإدريسية. ولكنه استقل عن الطريقة الأم وأقام طريقته الخاصة، وقد وجدت تعاليم الختمية وأورادها قبولاً شديداً خلال العهد التركي المصري.(٢٥)

تركز سعى أوائل المتصوفة الوافدين إلى السودان في بذر وتعهد مبادئ العقيدة الإسلامية مع الأخذ بمبدأ التبسيط والتيسير، فالمريدون لابد لهم من منهج سلوكي معين في عبادتهم ومسلكهم العام مع المداومة على قراءة أذكار وأوراد معلومة. ويبدو لي أنهم سعوا إلى بث مبادئ الدين بالتلقين وباستعمال الترانيم "والمدائح" والطبول في الأذكار الصوفية فأعطوها طابعاً إفريقياً خاصاً حتى حببوا كثيراً من العامة إلى طرقهم وما زالوا يفعلون. وكان المتصوفة يعتمدون في تحقيق مراميهم هذه على ما يتمتعون به من علم وخلق ديني وورع وزهد وسلطان روحي.

ساعد في تحقيق ذلك ما يعتقده المريدون من أن اللعنة تلاحق من يخالف الولي، وأن في مقدور الشيخ، لما يتمتع به من بركة، أن يساعد المريد في دنياه وآخرته، فهو نعم الوسيط بين العبد وربه في حياته وحتى بعد مماته. ومن ثم فلا غرابة في أن مشايخ الطرق كانوا يمثلون قوة روحية عظيمة الأثر في نفوس الناس، وهم في ذات الوقت أولي نعم على الفقراء، ومصدر خير كبير للمستضعفين، وحماة لهم جميعاً من عنت الحكام وجور السلاطين. ومثل هذا الفهم قاد بالضرورة الى تأييد طقوس الأولياء والطرق الصوفية.

ولقرب هؤلاء المشايخ من نفوس من حولهم كان إنتشار الإسلام على أيديهم أوسع

نطاقاً، إلاّ أنه كان مشوباً بكثير من الشعوذة والخرافة، فالتف المريدون حول مشايخهم في مساندة بعيدة المدى بلغت حد إضفاء خوارق الأعمال عليهم، كإحياء الموتى وإبراء المرضى والتحدث عن الغيبيات التي يتكرر ذكرها صفحة بعد الأخرى في **طبقات ود ضيف اللّه**.(٢٦)

لم يقتصر الإيمان بكرامات الأولياء على عامة الناس إنما انسحب أثره على الملوك والسلاطين ايضاً فأضحوا لا يقدمون على عمل شيء إلا بعد استشارة الأولياء، كما كان هو الحال مع الشيخ عجيب الذي انتوى محاربة الفونج فكان أن تنبأ له الشيخ إدريس ود الأرباب بالهزيمة وبأن خصومه سيسودون ذريته إلى يوم القيامة٠ ولما استنجدت الأميرة كميرة بالشيخ خليل الرومي ليناصر اخاها السلطان بادي ولد أونسه في حربه ضد الهمج كي يستعيد عرشه اشترط توبة السلطان وقد فعل٠ فقال له الشيخ خليل: "الفونج أخذوا عمامة الملك منك، فخذ عمامتي هذه، وضمنت لك ملك أبيك إلى أن تموت"٠

وكثيراً ما ترد عبارة "وكانت لا ترد له شفاعة" في معظم تراجم الأولياء التي ذكرها ودضيف اللّه٠(٢٧)

إزاء هذا الإحترام والتأييد حظي المتصوفة (كالعلماء) بعون مادي إذ أقطعهم الحكام القطائع، وأعفوهم من الضرائب، بينما غمرهم المريدون بالنذور والهدايا. فتمكنوا بذلك من القيام بدورهم في الترشيد الديني والهداية الروحية بجانب التصدق على من يستحق الصدقة والعون، وإيواء أبناء السبيل، فكانوا بذلك قد وضعوا نواة وحدة واستقرار وتلاحم والفة أو ما يشبه "التكافل الإجتماعي"٠

وبرغم أن بعض الفقهاء لم يكونوا ليحسنوا الظن بالمتصوفة، فإنهم بدأوا يترسمون خطاهم بعد أن شاهدوا ما حققه رجال الصوفية فكان أن جمع العلماء بين علمي الظاهر والباطن. ونجد في سيرة الشيخ دفع اللّه بن الشيخ أبي إدريس والشيخ مضوي بن مدني والشيخ شرف الدين بن علي ود برّي أبلغ دليل على ذلك.(٢٨)

والحق نقول إن وظيفة كل من الشيخ الصوفي والفقيه العالم لم تكن منفصلة للحد الذي أوضحته في الصفحات الماضية. بل لعله من العسير جداً أن نفرق بين الوظيفتين. ويتضح التلاحم بين الوظيفتين في الإستعمال المحلي إذ تعني كلمة "فكي" فقيه، وتجمع "فقرا" أي فقهاء. وترمز كلمة فقير إلى الصوفي، وتجمع فقراء أي متصوفة. وبذلك صارت كلمة "الفكي" تشير دون تمييز إلى الفقيه الصوفي. ومرد ذلك كله أن الفقهاء جمعوا بين علمي الظاهر والباطن، وصاروا يعلمون النشء مبادىء الفقه كما "يسلكون" الكبار في طريق القوم في الخلوة. والخلوة في الأصل موضع يعتزل فيه العباد الناس بقصد التعبد، ثم استعملت لتدريس القرآن ومبادىء الفقه وأداء الصلوات. ومن ثمَّ جمعت الخلوة بين الوظيفتين التعبدية والتعليمية بعد أن جمع الشيخ الواحد بين وظيفة الفقيه والفقير فصار "فكياً"، بل صارت الخلوة وهي محور نشاط الفكي مركزاً للإشعاع الروحي والثقافي والإجتماعي في سائر القرى.(٢٩)

وخلاصة القول فإن المرحلة الثانية لنشر مفاهيم العقيدة الإسلامية وتعميقها جاءت، بعد اكتمال موجات الهجرات العربية، على يد العلماء والمتصوفة الذين أسهموا بما لديهم رغم محدودية محصولهم الثقافي والفكري، فقد كان عطاؤهم على قلته سخياً. أما التصوف فقد كان له صدى واسع في نفوس السودانيين تشهد على ذلك الأضرحة والقباب المنتشرة عليشواطىء النيل خاصة في مشيخة العبداللاّب.

وقد التقت تعاليم الفقه الإسلامي النظرية والجوانب العملية من التصوف مع الموروث المسيحي والوثني على بساط واحد دون صراع يذكر، الشيء الذي يعكس نوعاً من التسامح والتراضي ما زال موجوداً بين سائر السودانيين.

ما أن اكتملت غلبة الثقافة الإسلامية وأحرز الإستعراب تقدماً ملحوظاً خاصة بين النوبيين، أو سكان المنطقة الواقعة شمال ملتقى النيلين، حتى خرج جماعة

من الفقهاء ورجال الطرق الصوفية يحملون مشعل تعميق التعاليم الإسلامية إلى منطقة جنوب الجزيرة، وإلى تقلي، وكردفان، ودارفور. وليست ظاهرة "الغريب الحكيم" التي أسلفنا ذكرها إلاّ أحد سمات نقل الإسلام وحضارته وتعاليمه من بلاد النوبة ذات المضمون الحضاري العميق إلى مناطق أقل تحضراً وأقل تأثراً بالإسلام.

ويُرجح أن انتشار الإسلام قد مر في كل من كردفان ودارفور بمرحلتين رئيسيتين لا تختلفان كثيراً عمَّا حدث في حوض وادي النيل الأوسط، وإن كان انتشار الإسلام والثقافة العربية فيهما أكثر بطئاً.

وترتبط المرحلة الأولى بدخول التجار المسلمين من أطراف القارة الأفريقية في الشمال والشرق ومن المغرب وأواسط بلاد السودان، ثم تبعتهم هجرة القبائل العربية في أعداد كبيرة من المنطقة السفلى للنيل، وأدى ذلك كله إلى نشر نوع من الإسلام نتيجة المصاهرة والاختلاط. وبدأت المرحلة الثانية بقيام بعض الممالك الإسلامية خاصة مملكتي تقلى والفور اللتين ربما كانتا في بعض مظاهرهما نتاج هجرة بعض الفقهاء إليهما، فشجعتا قدوم الفقهاء والمتصوفة الذين أخذوا ينشرون العقيدة الإسلامية على أسس سليمة. وقد تقاطر هؤلاء العلماء من مملكة الفونج خاصة من مجموعتى الدناقلة والجعليين، ومن مصر والحجاز وأواسط بلاد السودان.

وقبل هجرة هؤلاء العلماء من مملكة الفونج جذبت بعض مراكز التعليم والطرق الصوفية عدداً من الطلبة من المجتمعات حديثة العهد بالإسلام في كردفان ودارفور. مثال ذلك أن من بين طلبة الفقيه محمد القدال ، الذى اشتهر بتدريس خمس مجالس يومياً في **مختصر خليل** و **رسالة ابن أبي زيد القيرواني** والعقائد أي التوحيد، والتفسير و **قراءة الجامع الكبير في الحديث**، نحو ألف وسبعمائة وخمسين طالباً من التكرور. والتكرور لفظ يطلق على الوافدين من المنطقة الواقعة غرب دارفور وتشتمل عند سكان السودان الشرقي قبائل التكرور

والهوسا والفلاتة والبرنو والبرقو وبعض سكان دارفور. ولما اشتد القحط المعروف بسنة أم لحم (١٦٨٧ - ١٦٨٨م) نجع الشيخ القدال إلى كردفان حيث استضافه تلميذه الشيخ جودة، والد الشيخ مختار شارح **مختصر الأخضري** في العبادات.(٣٠) وقد بلغ طلبة الشيخ أرباب الخشن المشهور بأرباب العقائد (ت١٦٩١م) أكثر من ألف طالب جُلَّهُمْ من المنطقة الممتدة بين جنوب الجزيرة ودار البرنو.(٣١)

وممن هاجروا إلى دارفور من علماء سنّار الشيخ أبوزيد بن الشيخ عبدالقادر وسكن في كساب الواقعة شمال كتم، ثم نزح إلى السلطان يعقوب أبن عروس (١٦٨١-١٧٠٧م) الذي أجلَّهُ وأكرمه. وعاد إلى دارفور حيث مات بها على أثر خلاف بينه وبين السلطان يعقوب.(٣٢) وقد هاجر إلى دارفور ايضاً الفقيه أبو سرور الفضلي الجعلي، رفيق الشيخ أبي زيد بن الشيخ عبدالقادر وهناك درَّس ولاقي قبولاً حسناً عند ملوكها ثم هاجر إلى دار صليح.(٣٣)

وكان للشيخ حمد بن علي المشيخي المشهور بود أم مريوم (١٦٤٥ - ١٦٤٦ - ١٧٢٩- ١٧٣٠م) أتباع كُثرمن قبيلة فزارة عامة ومن بني جرّار خاصة، وكانوا يأتونه بزكاة ماشيتهم كل عام فكان يشترى بثمنها رقيقاً، ثم يعتق نصفه بعد أن يفقههم في الدين. وفي ذات مرة أغارت على بني جرّار جماعة من الفور وتمكن بنو جرّار من أسر سبعين منهم، وقدموهم هدية للشيخ حمد. وبعد أن أعتنقوا الإسلام ديناً، اعتقهم وأمرهم بالرجوع إلى ديارهم حتى يدعوا للدين الإسلامي.(٣٤)

لا شك أن قيام مملكة تقلي الإسلامية في الإقليم الشمالي من جبال النوبا كان يمثل منطلقاً جديداً في منطقة نائية على يد أسرة اشتهر مؤسسها "الفكي" محمد الجعلي وأحفاده بالدعوة للإسلام الذي كان يمثل واحداً من مناشطها التقليدية كما تروى الأخبار الشفاهية. وقد ألمحنا من قبل لصلة كل من الشيخ تاج الدين البهاري ناشر الطريقة القادرية في مملكة الفونج والشيخ مكي

الدقلاشي بمملكة تقلي. إلا أن كردفان لم تشهد ازدهار مدارس دينية أو مراكز صوفية كما هو الحال في مملكة الفونج. ولعل مرد ذلك غلبة حياة البداوة على معظم سكانها، وفشل المسبَّعات في إقامة حكومة مستقرة مزدهرة تشجع استقرار العلماء وتهيئ لهم فرص التدريس. بل إن معظم السهول الشمالية والمنطقة الوسطى من كردفان كانت مسرحاً لحروب دامية بين الفونج والفور والمسبَّعات استمرت طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر.

ولما كانت كردفان خالية من مدارس العلم إلى درجة كبيرة فقد طلب تلاميذها العلم في مملكة الفونج. ومن هؤلاء الفقهاء جودة اللّه، وهو من بني محمَّد وكان يسكن الزلطة (الواقعة شمال شرق الأبيض) في دار الريح. ودرس في الجزيرة على الفقيه محمد القدال وعند عودته أنشأ مدرسة إزدهرت على يد ابنه مختار الذي تفقه أولاً على والده وعلى فقيه قدم من المشرق ثانياً، ثم تصدى لتدريس الفقه والتوحيد وسائر الفنون حتى عمرت حلقته وكثر تلاميذه. ومات شهيداً على يد جنقل المسبَّعاوي. ومنهم جودة اللّه والدومة وهما من بني عمران (وهم من بعض العرب الذين هاجروا من مصر من منطقة دراو وانتشروا في وسط كردفان بين البديرية، وكانوا يحترفون التجارة والعلم) ودرسا الفقه على الشيخ صغيرون في القوز جنوب شندي.(٣٥)

كان لعائلة بشارة الغرباوي، وهم بديرية دهمشية هاجروا من دنقلا إلى كردفان، دور قيادي في نشر العقيدة الإسلامية في كردفان، وقد إشتهر من هذه الأسرة الشيخ إسماعيل الولي (١٧٩٣ - ١٨٦٣م) وكان والده قد هاجر إلى كردفان. وبعد ارتباط وثيق بكل من الشيخ أحمد البشير الطيب، مؤسس الطريقة السمانية في السودان، والسيد محمد عثمان الميرغني صاحب الطريقة الختمية. أسس الشيخ إسماعيل طريقة إسماعيلية في سنة ١٨٤٢م.(٣٦)

ويلقى وصف الرحالة البوهيمي بالمّ Pallme، الذي زار الأبيض في سنة (١٨٣٨م - ١٨٣٩م) ضوءاً على نشاط الدعاة المسلمين في ذلك الوقت. وبالرغم

من أن وصفه لنشاط الشيخ بدوي "أبو صفية" يتأخر عن فترتنا فإن الوصف يبدو مطابقاً لما حدث في وقت مبكر. يقول بالمّ: "كان الشيخ بدوي رجلاً تقياً، وقد يكون أي شيء إلا منافقاً ولذا فهو محبوب. ولقد حاز على حسن راي جميع الرجال. كان يفض المنازعات ويحسن نصح من يستنصحه... فهو بالإختصار خير داعية مسلم أو مبعوث محمَّدي، واستطاع أن يجمع ألوفاً من المعتنقين وسط الزنوج الوثنيين لأنه يتجول في معظم أوقات السنة في الجبال محاولاً نشر الإسلام... وكان يدافع عن عقيدته بنص القرآن وبحد السيف، وقد فقد احد أبنائه في القتال دفاعاً عن ذلك الغرض النبيل".(٣٧)

غير أن انتشار الإسلام الواسع في السودان الشرقي كان سلمياً في جملته ولم يصحبه ما يوازي حرب الجهاد المنسوبة إلى الإمام أحمد القران في الحبشة، أو الشيخ عثمان دان فوديو في أواسط بلاد السودان.

تدل الأمثلة التي سقناها على أن أثر علماء مملكة الفونج علي كردفان كان أغلب من أثر رصفائهم علي سلطنة الفور. ومن المحتمل أن تكون كردفان قد تأثرت بتيار آخر من وسط وغرب بلاد السودان.

اقترن انتشار الإسلام في دارفور بالمناشط التقليدية التي حددناها من تجارة وهجرة عربية ووفود فقهاء خاصة من مصر، وسودان وادي النيل، وشمال افريقيا، واواسط بلاد السودان ويروى أن الإسلام قد انتشر في تلك البلاد منذ عهد التُنْجُر، إلاّ أنه وجد تأييداً واهتماماً أكثر من قِبل ملوك الكيرا، فقد اشتهر السلطان أحمد بَكُر بأنه قد أنشأ مساجد ومدارس، كما شجع السلطان محمد تيراب العلماء الوافدين من مصر وتونس على الإستقرار في بلاده وأجزل لهم العطاء. وتبدأ عملية نشر الإسلام الحقيقي في عهد السلطان عبد الرحمن الرشيد، كما اوضحنا من قبل. وقد أصبغ تشجيع السلطان عبد الرحمن للعلماء صبغة دينية خاصة على الدولة: ومن هولاء عمر التونسي، وهو عربي تونسي قدم من الحجاز ثم قضى بعض الوقت في سنّار، وتبعه مؤخراً ابنه محمَّد الذي

صار كتابه **تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان** عن دارفور مصدراً هاماً لتاريخها. ومنهم الفقيه الشيخ التمرو الفلاني من المغرب، والشيخ حسين عماري الأزهري من مصر، والفقيه القاضي عزالدين الجامعي من سودان وادي النيل، والشريف سرور بن مساعد من أشراف مكة المكرمة،(٣٨) وغيرهم ممن ذكرنا عند حديثنا عن سلطنة الفور.

وبالرغم من الأثر الواضح الذي تركه "الفقرا" الوافدون من مملكة الفونج في إزدهار الثقافة الإسلامية في سلطنة الفور، فإن تلك المملكة وقعت تحت تأثير الثقافة الواردة من أواسط بلاد السودان والمغرب. ويعزى ذلك للمؤثرات التجارية والثقافية والسياسية التي طرحتها امبراطورية كانم - برنو، ووداي (خاصة البرقو). وكان ذلك الإقليم قد عرف الإسلام منذ القرن الحادي عشر.

فالمغرب بجانب إسهامه في نشر العقيدة الإسلامية والمذهب المالكي قد ترك أثراً في تجويد القرآن والخط العربي. فمن بين القراءآت المختلفة فإن أغلبية السودانيين يقرأون برواية الدوري عن أبي عمرو بن العلاء. أما في دارفور وكردفان ودنقلا فإنهم يقرأون برواية ورش عن نافع. وكان هذا الإختلاف في القراءآت أكثر وضوحاً في المغرب منه في مصر، وربما دخل السودان عن طريق التلمساني المغربي الذي دَرَّس علوم القرآن لمحمَّد ولد عيسى سوار الذهب في دنقلا ومنه انتقلت إلى الجزيرة. وفي الوقت الذي تبنت فيه مملكة الفونج الخط العربي العادي فإن سلطنة الفور أخذت بالخط الأندلسي والذي كان معروفاً في المغرب، وهذه الطريقة من الكتابة تعرف محلياً بخط ورش.(٣٩)

ببداية القرن التاسع عشر ونتيجة للهجرات العربية للتيارات الإسلامية التي تدفقت من مصر والحجاز وشمال أفريقيا والمغرب فقد رست دعائم عقيدة إسلامية قوية في السودان الشرقي. وعلي كل فإن بقاء بعض المعتقدات غير الإسلامية ووجود بعض جيوب القبائل الوثنية في جبال النوبا ودارفور (على الأرجح) وجبال الفونج يوضح أن إسلام القطر لم يكتمل بعد. وأكثر من ذلك فإن

إنعزال القطر واعتماده الكبير على الفقهاء المحليين"أو الفقرا" والمتصوفة، ذوي القدرات الثقافية والفكرية المحدودة، جعل مكاسب السودان الشرقي عامة وإنجازاته الأدبية والعلمية خاصة، إبان تلك الفترة محدودة وتفتقد الأصالة.

وبعد فإن إستيعاب كثير من شعوب السودان الشرقي للإسلام وتمثلهم للثقافة العربية أدى إلى خلق نوع من التماسك والترابط بين تلك المجموعات المختلفة، كما أسهم في بذر نوى بعض المقومات الاساسية لوحدة وطنية وسياسية أبقى وأشمل بين الممالك الإسلامية التي إنتشرت في السودان الشرقي.

هوامش الفصل السادس :

(١) طبقات ود ضيف الله ، ١٨-, ٢٣

(2) MacMichael; *Ar abs*, II,35; Trimingham , *Sudan* , 223

(3) Alvars, II, 461.

(4) Milet; " Jebel Adda, Preliminary Report", *Journal of American Research Center in Egypt*, VI, 1967,62.

(5) Trimingham, *Africa*, 23.

(٦) طبقات ود ضيف الله، ٤٠ .

(٧) طبقات ود ضيف الله، ٣٤٤ - ٣٤٥ .

(٨) عبدالعزيز عبدالمجيد، ٥ ،٥٢ .

(٩) طبقات ود ضيف الله، ٤٥ - ٤٧ ؛ Yusuf Fadl Hasan ; " External Influences" , *Sudan in Africa*. 124.

(١٠) المصدر السابق، ٢٣٤ - ٢٣٦ .

(١١) طبقات ود ضيف الله ، ٧٣ .

(١٢) المصدر السابق، ٤٩ - ٥٦ - ٩٩ - ١٠٠ - ١٩٠ - ٢٠١ .

(١٣) المصدر السابق، ١٠٠ - ١٠١ .

(١٤) المصدر السابق، ٤ .

(١٥) قارن بابن خلدون، ١، ٥٠٨ .

(١٦) **طبقات ود ضيف الله**، ٣٥٣ - ٣٥٤ .

(١٧) المصدر السابق، ٥ ، ٦ .

(١٨) المصدر السابق، ٥ - ٦ .

(١٩) المصدر السابق، ٧ - ٨ .

(٢٠) المصدر السابق، ١٢٧ - ١٢٩ .

(٢١) المصدر السابق، ٣٢١ .

(٢٢) المصدر السابق، ٢٥٢ - ٢٥٣ .

(٢٣) المصدر السابق، ٤٩ - ٧٠ ، ١٠٨ - ١٠٩ ، ١٣٢ - ١٤٨، ٢٥٠ - ٢٥١ ، ٣١٦ - ٣٢٢ .

(٢٤) المصدر السابق، ١٨٧ - ١٨٨ - ١٩٠ - ٢٠١ .

(٢٥) عبدالعزيز عبدالمجيد، ١، ٢٤٣ - ٢٤٤ Trimingham , *Sudan* ; 222-7 ; Yusuf Fadl Hasan ;"op . cit.", *Sudan in Africa*,8.

(٢٦) **طبقات ود ضيف الله** ، ٨-١٠ .

(٢٧) المصدر السابق ، ١١،٢٠٢،٢٠٣ .

(٢٨) المصدر السابق ،٢٠٥-٢٠٧، ٢٢٨-٢٣٢ .

(٢٩) المصدر السابق، ١١-١٣، ٣٤١ .

(٣٠) المصدر السابق، ٨٠ ، ٨٢ .

(٣١) المصدر السابق، ٩٩ - ١٠٠ .

(٣٢) المصدر السابق، ١٠٦ .

(٣٣) المصدر السابق، ١٠٥ .

(٣٤) المصدر السابق، ١٧٦ ، ١٨٠ .

(٣٥) المصدر السابق، ١٣٠ ، ١٤٥ .

(36)MacMichael , *Arabs*, 11,71 ; Trimingham , *Sudan*, 235 .

(37)Pallme, 189-190.

(٣٨) التونسي ، ١١٦ ، ١١٧ .

(39)Yusuf Fadl Hasan, " op. cit", *Sudan in Africa*, 11.